صلاح الدين في نظر مؤرخيه

« فروسية صلاح الدين »

د . محسن محمد حسين

مقدمة :

لا نحاول اظهار مزايا صلاح الدين العسكرية . بل نبغي ابراز الملامح الانسانية في شخصيته . لاعتقادنا بان هذه الملامح هي التي اثرت ذلك التأثير الفعال في مسيرته . وهي سر عظمته واجماع الناس على محبته وتقديره . والكتابة عن هذا القائد هي من قبيل الكتابة السهلة والصعبة معاً . والسهولة تأتية من غزارة ما كتب عنه من مؤلفات وابحاث اما صعوبتها فبعثها هو أن الحديث عن قائد من طراز صلاح الدين يجب ان يكون فيه مايستدعي الكتابة عنه . رغم تعدد وغنى جوانب شخصيته . الا ان ذكر مناقب عظمائنا يرقى الى المستوى الواجب أحياناً .

البحث :

المثول بين يدي صلاح الدين أمر تمتزج فيه حلاوة الايمان بروعة انتصار الارادة . وتقترن هذه الحلاوة بالوفاء لانسان نذر نفسه لنصرة الحق واعادته الى اصحابه . وفي تجديد اللقاء عبرةٌ لمن يؤمن بان الشعب إذا أراد أن يهشمَ العدوانَ فلابد من التضحية . وهذا ما ادركه صلاح الدين جيداً وعمل من اجله . وتبوأ صلاح الدين لتلك المكانة لم تأت اعتباطاً . بل جاء عبر الكثير من تجاوز الذات ونكرانها . ليغدو تلك القدوة الفريدة . وصلاح الدين لم يكن الظرف الطارئ . بل كان التاريخ بعينه .

فصلاح الدين ترك سيرة أبهى من الضوء . تنير الطريق لمن يريد ان يهتدي وأن يصل . يرى كل عابر طريقه في هذه البلاد أن يشعل منه قَبَساً . حتى يستضيءَ فيهتدي ويصل . وهي مهمة التاريخ . ووظيفة الاقتداء . وحكمة الانتفاع بالقياس . وهذا يعني ان صلاح الدين انفرد . دون كثير من القادة والابطال . بانه كان ضرورة زمنه[1] . فعهده يشكل اكثر من حادثة عابرة في تاريخ الحروب الصليبية . فهو يمثل احدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري . وذلك عندما يكون التصميم الاخلاقي ووحدة الهدف قد اطاحا لفترة وجيزة بكله من الشك في طيبة الدوافع البشرية والتحررف من الوهم . وهما الناجمان عن خبرة طويلة لاطماع الامراء الانانية . اذ لم تكن الجيوش الاسلامية بدون هذا الاساس لتملكَ القدرة أبدا على إبقاء الصراع المضني وتحمله خلال حروب العدوان الصليبي . فلو شئنا النظر الى ذلك الانجاز وفهمه في اطاره التاريخي . لوجب القيامُ بمحاولةٍ لاظهار كيف استطاع صلاح الدين ان يتغلب على جميع العقبات لكي يخلقَ وحدةً معنويةً برهنت . رغم انها لم تتحقق بصورة كاملة . ان لها من القوة ما يكفي للوقوف بوجه التحدي الكبير[2] .

لقد اعترف كتاب اوربيون بان صلاح الدين ظهر على مستوى من كرم الاخلاق والشجاعة لا يفوق المستويات العادية التي عرفها فرسان الغرب فحسب ، بل يفوق – كما يرى ستيفنسون – المثل العليا التي لم يصل اليها اولئك الفرسان في يوم من الأيام[3] . فقد عامل عدوه ، وهو في ذروة انتصاره عليه ، معاملة كريمة تليق بكرم وشجاعة الفرسان الحقيقيين . وبين «ستون» ان السر في

تلك المعاملة ربما يكمن – اضافة الى طبيعة صلاح الدين السمحاء وتمسكه بروح الاسلام وخلقه – الى هدف آخر هو ضرورة عدم استثارة الغرب الاوربي للعمل ضد المسلمين ، اذا هو تطرق في معاملة الصليبيين وعاملهم بمثل ماعاملوا به المسلمين من قبل[٤] ، وذا يدل ، ولاشك – على منتهى الحكمة في عدم منح أعدائه الفرنجة – الصليبيين – حجة جديدة لاستمرار عدوانهم على المشرق الاسلامي .

وقد أجمل (كارل بروكلمان) عددا من مزايا صلاح الدين بقوله : ليس من شك في أن قلة ضئيلة من أمراء الاسلام كانت تضارعه من حيث تجرده عن أيما نزعة الى الكسب الشخصي ، ومن حيث انصرافه الى خدمة دولته ورعاياها ليس غير ، ولم يستطع اعداؤه أنفسهم إلا الاقرار له بالشهامة والنبل في معاملة الخصم المغلوب . ليس هذا فحسب ، فقد كان صلاح الدين ، بالاضافة الى ذلك كله ، نصيراً للعلم»[٥] . وقد ملأ دولته بالمدارس والمستشفيات ، وكان عدد العلماء والادباء في مجلسه اكثر من عدد القواد ورؤساء الاجناد . وذات مرة زاره أحد العلماء زيارة خاطفة ثم انصرف ، وبعد أيام عاد صلاح الدين ليسأل عنه ، فقيل له انه رحل ، فظهرت على وجهه أمارات العتاب ، وقال : كيف يتركنا هذا الرجل وينصرف عنا من غير عطاء يمسه منا ؟

وهذا القائد – عكس غيره – تحدى الصليبيين وهم في أوج مجدهم العسكري ، بعد ان بلغوا من القوة واتساع النفوذ في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، درجة هددت أهل العراق والشام ومصر بل واهل الحجاز وسكان الحرمين فصلاح الدين عندما اعلنها حرباً دائبة على الصليبيين كان يعلم تماماً انه سينازل خصماً قوياً مكن لنفسه في البلاد ، ومن خلفه الغرب الاوربي يمده بالعدد والعدد واذا كان صلاح الدين قد بلغ درجة كبيرة من القوة – بوصفه حاكماً على مصر والشام – فانه بنزوله الى المعركة تحدى أكابر ملوك الغرب في انجلترا وفرنسا والمانيا فضلاً عن البابوية ذات النفوذ الروحي الواسع في غرب اوربا في العصور الوسطى . لذا فان الفارق واضحٌ بين صلاح الدين من ناحية وغيره من زعماء الجهاد السابقين واللاحقين من ناحية اخرى ؛ لأن اسلاف صلاح الدين من هؤلاء الزعماء نازلوا جموعاً من الصليبيين مازالت في دور النضج والنمو والسعي لتفهم اوضاع البيئة الجديدة التي استقرت فيها بالمشرق العربي ، وخلفاءُ صلاح الدين من الزعماء نازلوا العدو بعد أن هزمه حروب صلاح الدين وضرباته القوية المتلاحقة ، وجعلتها تتحول من دور الهجوم الى دور الدفاع عمتا تبقى لها من جيوب «مستوطنات» متناثرة تعرضت للاضمحلال والذبول[٦] .

واعلن مؤرخ الحروب الصليبية الكبير (ستيفن رنسيمان) : ان صلاح الدين ، رغم انه قد ناصب الصليبيين العداء ، فانه اختلف عن ملوكهم في أنه لم ينقض عهداً حين كان يبذله لأحد ، مهما اختلف عنه في الدين . ورغم حماسه الديني الشديد ، كان دمثاً سخياً ، وباعتباره سيداً كان متسامحاً شديد التعفف والرزانة .[٧] وهذا ماأعلنه «لامونت» ايضاً ، الا انه اضاف أن صلاح الدين استطاع ان يضع اساسَ دولةٍ تعيش فيها الديانتان جنباً الى جنب .

وكان هدفه سحق قوة الصليبيين السياسية ، ولم يكن قصده ابادة المسيحيين . ولهذا كله استحق صلاح الدين من السياسي والزعيم الانكليزي الشهير السير (ونستون تشرشل) تسمية (اعظم ملوك الدنيا) ، واعلن الكاتب الانجليزي (ريدر هجارد) : ان صلاح الدين كان اعظم رجل على وجه الارض[٨] .

والقصة التالية تؤكد ماذهبنا اليه . ففي موضوع الدفاع عن (بيت المقدس) سنة ١١٨٤ ، واثناء المفاوضات بين صلاح الدين وبين وفد صليبي حول شروط تسليم المدينة المقدسة الى المسلمين ، وصل (باليان ابلين) القائد الصليبي من صور الى هذه المدينة دون توقع ، وارسل الى صلاح الدين يطلب منه الأمان للدخول الى بيت المقدس ، لأن زوجته الملكة (ماريا) لجأت مع أطفالها الى هذه المدينة ، واراد باليان ان يُعيدَهم الى صور التي كانت بيد الصليبيين . فأجاب صلاح الدين الى طلبه ، شرط أن لايمكث في المدينة ليلةٍ واحدةٍ ، وألا يحملَ معه اسلحةً . فلما قدِم باليان الى المدينة التقى البطريرك هرقل ومنتسبي طائفتي الداوية والاسبتارية ، يحاولون إعداد اسباب الدفاع عن المدينة من اسلحة ورجال وعُدد ، الا انهم كانوا يفتقرون الى قائد يثقون فيه ، ويكون اهلاً لقيادة المقاومة الصليبية ، وحين رأوا باليان بينهم تصايحوا جميعاً في طلبه ، وبانه لابد ان يبقى في القدس معهم ، وان يتولى قيادتهم ، وقرروا أنهم لن يسمحوا له بالخروج منها .

وحين إستبدت الحيرة بالقائد الصليبي كتب الى صلاح الدين يشرح له إقدامَه على انتهاك القسم الذي أداه لصلاح الدين .

وكأن لسان حال (باليان) صار يقول : اسمح لي ياصلاح الدين ان احاربَك ، واصد هجومَك على بيت المقدس ، بل واقودَ المقاومة ضد جيشك ! .

على ان صلاح الدين الذي اشتهر دائماً – كما يقول ستيفن رنسيمان

بالدماثة والمروءة مع العدو الذي يحترمه . لم يكتف بالعفو عن باليان بل ارسل حرساً ليرافق الملكة واطفالها وحاشيتها ، وكل امتعتها الى مدينة صور . وسار بصحبتها (توماس ابلين الصغير) ابن اخي باليان . والابن الصغير لـ «هيو» صاحب مدينة جبيل . ويحكى صلاح الدين حينما شاهد هؤلاء الاطفال ، ورثة المجد الصليبي الغابر يحتازون معسكره ، في طريقهم الى المنق[9] .

وقد أثنى المؤرخون الغربيون جميعاً ، على الموقف النبيل الذي وقفه صلاح الدين حين فتح جيشه مدينة بيت المقدس ، وتحدثوا باعجاب شديد عن توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين والمحتاجين من الفرنجة ، وعن اكرامه النساء ورأفته بالاطفال ورعايته للضعفاء منهم . ويشهدون بأن جنوده كانوا على غراره في المروءة والشهامة . فلم يقع في هذا الحادث التاريخي الخطير اي أمر من الامور التي تقع عادة في مثل هذه الحالة على ايدي الجنود المنتصرين ، والتي وقع كثيرٌ منها لما احتل الفرنجة القدسَ . ويقول (فيليب حتى) في ذلك : كان الفرق جليا بين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الافرنج ، ومعاملة الافرنج للمسلمين قبل ذلك بثلاث وثمانين سنة[10] .

وفي كتاب (تاريخ الحروب المقدسة في المشرق . .) يقول مؤلفه (مكسيموس مونروند) عن المجازر التي رافقت احتلال الفرنجة للقدس : ان المؤرخين بنوع خاص ذموا قساوة هؤلاء الجنود البربرية عن هذا الفعل . وعندما يتحدث هذا المؤلف عن فتح صلاح الدين للقدس وأعمال الرحمة والشهامة التي بدرت منه نحو الصليبيين لايسعه الا ان يقول : ان الفضل لاشفاق الملك العادل (ابي بكر سيف الدين ، اخي صلاح الدين) على الصليبيين الذين تم اجلاؤهم عن القدس – بعد فتحها – دون الحاق اي اذى بهم ، يعود الى اوامر صلاح الدين وما عرف عنه من رأفة على عدوه المنكسر[11] .

وبعد تحرير مدينة القدس كان البطريرك اللاتيني (ايراكلوس) اول من غادرها ، وكان يحمل معه مقداراً كبيراً من الاموال والجواهر ، فقيل لصلاح الدين : «لقد ماعمه لتقوى به المسلمين» . فقال : لااغدرُ به ! . ولم يأخذ منه غير مقدار المال المنفق عليه وهوعشرة دنانير . وهم بعض الامراء باعتراض البطريرك المثقل بالمال والبضائع الثمينة ، فمنعهم صلاح الدين قائلاً : «الوفاء شرف» .

ثم خرجت الملكة «سيبيلا» زوجة «جي لوسينيان» ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية يحيط بها الأشراف والاميرات ، فبالغ صلاح الدين في اكرامها ، وخاطبها عبر مترجم له . باسلوب مهذب رقيق ، وبعث بها الى زوجها السجين بقلعة نابلس حيث مكّث في ضيافته حتى أُطلق سراحهما معاً .

وخرجت طائفة كبيرة من النساء ووقفن في حضرته منتحبات . يختلسن النظر اليه فلا يرين سوى ملامح انسانٍ عادلٍ وسلطانٍ وديعٍ ، وليس ملامح الوحش الكاسر . فقال لهن : «ماذا تُردنَ؟» . فقلن : ايها السلطان :

ترانا الآن راحلاتٍ عن هذه الديار ونحن بين زوجة اوأم او ابنة لاولئك الجند الذين مايزالون في أسرك . وبعد محاولات لاستدرار عطفه ، تأثر صلاح الدين لقولهن ، واطلق سراحَ رجالهن ، وعوض اللاتي مات اولياؤهن مالاً . وجد د الامر على جنده بأن يحسنوا معاملة من بقي لديهم من الأسرى .

وكان بين الاسرى الذين اعتقهم صلاح الدين فتاة فرنسية ، تولا بها العجب وتقدمت نحوه قائلة : لقد قتلتَ أبي ايها السفاك . واسرتَ أخوَي . فلم يعد لي عائلٌ . وها انت تمنّ عليّ بالعتق كيما يزداد بلائي ! . فلم تُثر تلك الشتائم ثائرة القائد المنتصر . وبعث بمن أحضرَ أخوتي الفتاة . وقال لها : اما ابوك فقد قُتل في حرب هو الذي أشعل نارَها واعتدى بها على القوم الآمنين في ديارهم . واما أخواك فاني اطلقُ سراحهما اكراماً لفتاة في حاجة الى العائل والمعين . فقالت الفتاة الفرنسية :

عفواً مولاي . فانما هي ثورة الحزين . وماكنتُ اسمعه في بلادي عن ظلم المسلمين جعلني انطقُ بما لاأعي . وانني مع هذا لستُ بائسة من صفحك وكرم عفوك . ولما همت الفتاة بالانصراف قال السلطان : الى اين انت ذاهبة؟ قالت : إلى بلادي .

فقال صلاح الدين : وماذا انت قائلة لقومك؟ . اجابت : أقول لمتعصبيهم كلمة الحق في الاسلام والمسلمين .

وجاءته امرأةٌ تولولُ مستغيثة . تُمرغ وجهها في التراب لفقدها رضيعها . فرق لها قلبُ صلاح الدين ودمعت عيناه لمنظرها . وأمر بالبحث عن الرضيع . فأُحضرَ الطفلُ وسلمه بيده الى أمه كي تُقر به عينُها . وقال لها : «خذيه . ولاتريبه على بُغضنا . فنحن لسنا وحوشاً مفترسة . ولكننا ندافع عن حقنا وارضنا» .

ويروي الشاعر اليهودي الاسباني (يهودا حريز) الذي زار القدس سنة ١٢١٦م . اي بعد تحريرها بحوالي ثلاثين سنة : ان اليهود قد أفادوا من جو الحرية الذي شاع في عهد صلاح الدين . فلجأت الى القدس جماعاتٌ كبيرةٌ من اليهود وفدت اليها من ارجاء العالم[13] .

يقول الدكتور الباز العرني : ان السر في قوة صلاح الدين تلمسه اساساً في محبة الناس له . فما سعى غيره من الناس للحصول عليه . بما سلكوه من اساليب التخويف والقسوة والتعالي . أحرزه هذا القائد بالمحبة والتعاطف[14] . ونكشف مصدرَ قوته في حديثه الى الملك الظاهر شهاب الدين غازي . اعز اولاده اليه . حينما اذِنَ له . قُبيل وفاته . بالرحيل الى مقر حكمه بحلب . ثم قال له . بحضور مؤرخه ابن شداد : ياولدي «اوصيك بتقوى الله تعالى . فانها رأس كل خير . وأمرك بما أمرَك الله به . فانه سببُ نجاتك . واحذَرْك من الدماء . والدخول فيها والتقلد لها . فان الدمَ لايتامُ . واوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في احوالهم . . . فما بَلغت مابلغتُ الابمداراة الناس . ولاتحقد على أحد . فان الموتَ لايُبقي احداً . وأحابر مابينك وبين الناس فانه لايغفَر الا برضاهم»[15] .

ان هذه الشهادات تزودنا بتفسير حقيقي للنجاح الذي احرزه . فلم يكن صلاح الدين محارباً ولاحاكماً بفضل التدريب او الميل . لكنه كان الملهم لجميع العناصر والقوى التي استهدفت وحدةَ الاسلام في وجه الغزاة ، والتي التفتَ حول صلاح الدين . ولم يحقق هذا الأمر عن طريق القدوة التي تجلت في شجاعته وعزمه الذاتيين . بقدر ما حققه من خلال نكران الذات وتواضعه وكرمه ، ودفاعه المعنوي عن الاسلام ضد اعدائه . . . لقد اوقع صلاح الدين اعداءه وخصومَه في حيرةٍ من أمره ، لأسهم توقعوا أن يحدوا الحوافز التي تحركه على غرار حوافزهم . وتوسموا فيه ان يمارس اللعبة السياسية على طريقتهم هم[16] .

والخاص بتلك الحروب . وقد صور هذا المؤرخ الفرنجي القادة المسلمين . خاصة صلاح الدين وكذلك نور الدين محمود ووالده عماد الدين زنكي واسد الدين شيركوه عم صلاح الدين . تصويراً يدعو الى الاعجاب ، ونعى على الزعماء الصليبيين تدهور صفاتهم الحربية والخلقية . وعجزهم عن مقاومة جيوش القادة المذكورين لانتشار الرذيلة والخيانة والفرقة والمنافسة والغدر في صفوفهم[18] .

وحين تم الاتفاق ، بين الكونت ريموند صاحب طرابلس وبين حكام حلب ، على مناهضة صلاح الدين ، لاحظ وليم الصوري ان «كلما ازداد صلاح الدين قوة ، اشتدت عداوته وخصومته لنا «للصليبيين» فاثار ذلك فينا الخوف والرعب» .

وكان صلاح الدين حكيماً إذا أشار ، مقداماً في الحرب اذا نهض لها ، بالغ السخاء إذا اعطى . ومن الخير ان تبذل المساعدة للملك الطفل «اسماعيل ابن نور الدين ابن زنكي» لامراعاة لصالحه ، بل لمساندته في عداوته لخصمنا العنيد ، صلاح الدين[19] .

كتب وليم الصوري كتباً عديدة ابرزها الكتاب الذي الفه في ثلاثة وعشرين جزءاً .

واذا كانت كلمات وليم الصوري بمثابة تدشين لاقرار ابرز مؤرخي العدو واعتراف بسمو اخلاقيات القائد، فما الذي قاله عنه كُتابنا ومؤرخونا وكتابنا الذين عاصروه. وليس الذين جاؤا بعده والذين اتسمت كتاباتهم باضفاء صفاتٍ مبالغا فيها عليه. ورفعوا شأنه حداً اوصلوه الى مراتب عليا من الاجلال. وهذا هو شأن المؤرخين كلما ابتعدوا عن الزمن الذي عاش فيه هذا القائد اوذلك الحاكم. وكذلك لم تتحدث عن كلمات الاطراء التي القاها الشعراء بين يديه في مناسبات النصر المختلفة. والتي اشادوا فيها. بجهود صلاح الدين وذكر مآثره ضمن قصائدهم الحماسية. ولم نتحدث عن مؤرخين وكتاب يمنون بصلة قربى الى صلاح الدين مثل صلاح الدين محمد ابن تقي الدين عمر ابن شاهنشاه ابن ايوب. المتوفى سنة ٦١٧ هجـ / ١٢٢٠ م) فكتابات هذا المؤرخ عبر مؤلفه «مضمار الحقائق وسر الخلائق» اشبه بقصيدة شعر طويلة في الاشادة بعم والده. صلاح الدين. إذ كان هذا المؤرخ مأخوذاً بالقائد الكبير الى حد الانبهار.

لذا اكتفينا بما ادلى به المؤرخون والرحالون الذين التقوا بصلاح الدين. ومن ضمنهم ابن الأثير الذي ناصب القائد الخصومة – ولا تقول العداء – بسبب ميوله تجاه الاسرة الزنكية الأتابكية التي عاش هو واخواه ووالدهم «اثير الدين محمد» تحت كنفها في الموصل. المدينة التي حاصرها صلاح الدين ثلاث مرات. إلى ان استطاع ان يلحقها بدولته وجهوده الرامية الى تحرير الاراضي الاسلامية. لهذا لا يتوقع المرء ان تكون كتابات هذا المؤرخ على غرار كتابات المؤرخين الآخرين. وفي هذا الخلاف. وتفرد ابن الاثير بذكر روايات مختلفة. تكمن أهمية كتاباته التي عبرت عن وجهة نظر اكبر قوة اسلامية بعد الخلافة العباسية – ظلت سنين عديدة خارج دولة صلاح الدين. وقد اثبتت كتاباتُ هذا المؤرخ الكبير ان التاريخ لا يخلو من اخبار. ما دامت حوادثه لا تصنع في الانابيب المختبرات. انما يصنعها الناس مزودين بمؤهلات خاصة. وتدون اخباره أناملُ اشخاص تظهر على كتاباتهم زخاتُ عاطفةٍ. عاطفة الحب وعاطفة الكره.

ورغم موقفه المجافي. بل وقليه الحقائق في أحايين كثيرة – كما هو معروف عند جمهرة المؤرخين والباحثين –[٢٠] فان ابن الاثير لا يقل عن اي مؤرخ معاصر في الاشادة بصلاح الدين. فقد ذكر عن تسامحه قصصاً عديدة. منها: ان القائد كان جالساً ذات يوم مع جماعة فطلب ماء. فلم يحضره الساقي. وعاود الطلب خمس مرات متتالية دون جدوى. فنادى: ياصحب يا اصحابنا والله قد قتلني العطش. فأحضر له الماء فشربه. ولم يغضب. او يحتج على التواني في احضاره.[٢١]

ومرض صلاح الدين مرضه الشديد المعروف والذي أرجف عليه بالموت. ثم برئ منه. وأدخل الحمام. وكان الماء حاراً. فطلب ماء باردا. فاحضره له احد خدم امه. فسقط من اناء شيءٌ على الارض فقاله منه شيءٌ. وتألم لفعله. وطلبه ثانية. فأحضر. فلما قاربه سقط الطاسة على الارض. فوقع الماء جميعه عليه. فكاد يهلك. فلم يزد على ان قال للغلام: ان كنت تريد قتلي فعرفني. فاعتذر اليه. فسكت عنه.[٢٢]

ومن اشادة مقتضبة لكاتب عصر صلاح الدين الشهير عماد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل كتبها يوم وفاة هذا القائد وبعثها الى الملك الظاهر شهاب الدين غازي ابن صلاح الدين صاحب حلب. وهو ينبهه الى خطورة الموقف وضرورة الارتفاع الى مستوى الحدث كتب يقول: «لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة و «ان زلزلة الساعة شيء عظيم»[٢٣] . . . واما لانح الامر فانه ان وقع اتفاقٌ بين الاخوة ابناء صلاح الدين، فما عدمتم إلا شخصه الكريم (اي: اذا تضامنتم فانكم بذلك لم تخسروا سوى شخص والدكم الكريم) وإن كان غيره – اي تفرقت كلمتكم – فالمصائب المستقبلة (الآتية) أهونها موته وهو الهول العظيم والسلام». وقد علق كاتب السير الشهير ابن خلكان على هذا الكلام البليغ بقوله: لله د ره. فلقد ابدع في هذه الرسالة الوجيزة. مع مائضمنته من المقاصد السديدة في مثل تلك الحالة التي يُذهل فيها الانسان عن نفسه.[٢٤]

وشهدَ عصرُ صلاحِ الدين ظهور رحالة عربي اندلسي بارز هو محمد بن

حمد الكناني المعروف بـ(ابن جبير) المتوفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، زار
لشرق في رحلات ثلاث في وقت كان فيه صلاح الدين مشغولاً بتصفية الوجود
صليبي في ارض الشام واقامة التحصينات فيها وفي مصر ، . واشاد به
زاراً[٢٥] ، وشهد نهاية الحملة (البحرية – البرية) التي قادها ارناط (رينو دي
ساتيو) القائد الصليبي الشرس (عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) تلك الحملة التي
ستهدفت الاعتداء على الحرمين والتي انتهت بالفشل الذريع نظراً ليقظة صلاح
لدين وتنبهه الى خطورة ماقد يحصل ، فوقف لها بالمرصاد وقضى على الحملة
رجالها ، والقى القبضَ عليهم ، وارسل بعضهم الى الاسكندرية للتشنيع بهم
ي تظاهرة شعبية ، تلك (التظاهرة) التي شهدها ابن جبير[٢٦] . وقد تحدث هذا
لرحالة عن ماثر صلاح الدين في بناء المنشآت العمرانية من رُبط ومستشفيات
ومدارس ومآوٍ للفقراء ، ثم يبتهل الرحالة الى الله طالباً التوفيق والصلاح لهذا
السلطان ذي السنن المحمودة ، ثم يقول : وماثر هذا السلطان ومقاصده في
العدل ومقاماته في الذَب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة ، ثم يقول : فسبحان
الذي جعله صلاحَ دينه كاسمه .

وحضر (ابن جبير) خطبة صلاة الجمعة ويقول : ان الخطيب اكثر بالصلاة
على محمد وآله واصحابه ، ثم دعا للخليفة العباسي وامير مكة ، واخيراً لصلاح
الدين ، وعند ذكر اسمه في الدعاء تخفُق الالسنة بالدعاء له من كل مكان»
ويذكر هذا الشعر :

وإذا احب الله يوماً عبدَه القى عليه محبة للناس

وحُق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم وحسن النظر لهم ولما
رفعه من وظائف المكوس (الضرائب غيرالشرعية) عنهم .

اما الرحالة والعالم البغدادي المصري الشهير عبد اللطيف البغدادي (توفي
ببغداد ٦٢٩هـ / ١٢٣١ م) ، فقد ذكر في كتابه المعروف (الافادة والاعتبار في
الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر» انه توجه الى القدس والتقى
بصلاح الدين حين كان مشغولاً ببناء سور وخندق هذه المدينة المقدسة المهمة ،
ويقول : رأيت ملكاً عظيماً يملأ العينَ روعة والقلوبَ محبة ، قريباً بعيداً ،
سهلاً مجيبا ، واصحابه يتشبهون به «يقتدون به» ويتسابقون الى المعروف ، كما
قال تعالى : «ونزعنا مافي صدورهم من غلٍ ». ويضيف الى قوله : واولُ ليلٍ
حضرتُه وجدتُ مجلساً حفلاً باهل العلم ، يتذاكرون في اصناف العلوم ، وهو
يحسن الاجتماع والمشاركة ... ويضيف : ان صلاح الدين كان مهتماً في بناء
سور القدس وحفر خندق ، يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الاحجار على عاتقه ،
ويتأسى به جميع الناس ، الفقهاء والاغنياء ، الاقوياء والضعفاء ، حتى العماد

الكاتب الفاضل . ويركب لذلك قبل طلوع الشمس .. ويصرف اكثر الليل في
تدبير مايعمله نهاراً[٢٧] . ويذكر هذه التحصينات يعلن ابن الاثير ان الملك
الصليبي الانكليزي الشهير (ريتشارد قلب الاسد) طلب من الفرنج الشاميين –
اي الصليبيين القدامى – ان يصوروا له مدينة القدس بعد تلك التحصينات
الجديدة التي اضافها صلاح الدين ، فصوروها له . فقال : هذه مدينةٌ لايمكنُ
حصرها مادام صلاح الدين حياً ، وكلمة المسلمين مجتمعة[٢٨] .

وإذا انتقلنا الى كاتب سيرته بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بـ(ابن
شداد) المتوفى (٦٣٢هـ – / ١٢٣٤ م) فسنقرأ لديه مايدهش ، إذ يصوّ
صلاح الدين وكأنه ذلك الرجل الذي لايبارح صومعَتَه ، وليس لديه شاغل
سوى أداء الفرائض الدينية على اكمل وجه . وإذا ذكرنا كل ماتحدث عنه هذ
المؤرخ نكون قد سببنا الملل لدى الحضور الكرام ! والمعروف ان هذا المؤرخ
الموصلي قدالتحق بخدمة صلاح الدين بعد انتصار حطين الكبير وظل يلازم
حتى لحظة وفاته ، فكان هو «والقاضي الفاضل» قد شهدا تلك اللحظ
المؤسية ، ووصف الساعات الاخيرة من حياة هذا القائد العظيم وصف
مؤثراً[٢٩] .

يقول ابن شداد عن التحاقه بركب صلاح الدين : ان الله قد اوقع في قل
محبته منذ أن رأيته ورايتُ تعلقهُ الشديد بالجهاد .... وقد عينه صلاحُ الدي
قاضياً لعسكره وللقدس الشريف .

يفتتح المؤرخ كتابه المعروف (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) بالحدي
عن حسن عقيدة السلطان ومواظبته على الصلاة ، ولاسيما صلاة الجماعة «ح
انه ذكر يوماً انه لم يصلي منذ سنين الا جماعة» وحتى اثناء مرضه ، فك
يستدعي الامام ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة . وكذلك يتحدث ا
شداد عن صومه وزكاته وصدقاته التي استنفدت جميع ماملكه ، حتى انه
يخلف في خزانته سوى سبعةٍ واربعين درهماً ودينارٍ واحد ، ولم يخلف ما
ولاداراً ولاعقاراً ولابستاناً ولاقرية ولامزرعة ولاشيئاً من انواع الامل
الاخرى ، على حد تعبيره .

ويعرج ابن شداد للحديث عن محبته لتلاوة القرآن العزيز ، واهتم
بالحديث ورجاله ، وعن عدالته وكرمه ، ثم شجاعته ، وشغَفِهِ بأمرالجهادِ بح
لم يكن له حديث الا في الجهاد الذي استولى على قلبه وسائر جوانحه استي

ليماً ، وكان الرجلُ إذا اراد ان يتقرب اليه يحثه على الجهاد ، او يؤلف فيه ، قد أُلفت له كتبٌ عدة في الجهاد ، وأنا – كما يقول – ممن جمع له فيه ياً[٣٠] . ولعل ابن شداد هذا كان اكثر من يسرد قصصاً من هذا القبيل ، لك قصص انسانيته وسماحته . فما ذكره انه في احدى المعارك أُسِرَ عددٌ من فرنج ، وجيءَ بهم الى صلاحِ الدين ، وكان بينهم شيخٌ هرم فقدَ أسنانه عف بصرُه ، فقال للترجمان : «قل له ما الذي حملك على المجيء وانت في ه السن ، وكم بين هذه البلاد وبلادِك ؟ . فاجاب : «بلادي بيني وبينها ة شهور ، وانما مجيئي فانما كان للحج الى كنيسة القيامة» فرق له صلاح ن وأمر بايصاله الى القدس لزيارة الاماكن المقدسة .

لقد كان صلاحُ الدين كثير المروءة ، كريماً حد الافراط ، مبسوط الوجه لمن سده من الضيوف ويكر مه وان كان عدوه ، وحين كان نازلاً مدينةَ بيروت ابرام صلح الرملة بينه وبين الفرنج في شوال ٥٨٨ هـ / ايلول ١١٩٣ م ، ل الى مجلسه الامير الصليبي (بوهيمند) صاحب انطاكية ، فاكرمه وأجزل لمن معه من البارونات العطاء . وعلى الرغم من العداء بين الفرنج والمسلمين زدد صلاح الدين في ان يمدعدوه المعروف (ريتشارد قلب الأسد) اثناء ه بما احتاج اليه من الفاكهة والادوية والثلج .

ومن كرمه وزهده عن ضم الاقاليم انه كان يهبُ المدن لمن يراه مستحقاً ، فلما آمد (في بلاد الروم / تركيا الحالية) وطلبها منه (نور الدين ابن قرة ارسلان) اه اياها دون تردد مع مخازنها الضخمة دون المساس بها . وأثبتت هذه المناسبة والى الابد بطلان التهمة التي حاول خصومُه الصاقها به عن اطماعه في انشاء طورية خاصة به .

يقول ابن شداد ان صلاحَ الدين كان يعطي الكثير ، وعَرفَ الناس فيه هذه ة فكانوا يستزيدونه (يطلبون منه المزيد من العطاء) في كل وقت ، بلغَ ما وهبه من الخيل بمرج عكا نحو عشرة الاف فرس ، ويضيف ابن د : «كنتُ احمر خجلاً من حجم المطالب المتطلبة منه» .

وبعد :

فليس من حقنا التأسي والاقتداء بقائد هذه صفاته ؟ القائد الذي قارع العدوان بكل ماأوتي من قوة ، وجاهد لتحرير الأرض ذلك الجهاد المرير شغف به واستولى على قلبه وسائر جوانحه ، كما ذكرنا ، وكما ذكره مؤرخو سيرته ، الجهاد الذي لم يكن له حديث الا فيه والذي من اجله «هجر اولاده ووطنَه وسكنه وسائرَ ملاذِهِ وقَنِعَ من الدنيا بالسكنِ في ظل خيمةٍ مهلهلةٍ تعصف بها الرياح يُمنة ويُسرة . ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة عاصفةٍ . وهو على مروج عكا ، فلو لم يكن في برج المدينة وقتئذ لقتلته[٣١] .

فيا سيرة صلاح الدين علمينا مناقب الابطال[٣٢] .

○

الهوامش

(١) عبد العزيز سيد الاهل ، ايام صلاح الدين ، ص : ٦ .
(٢) جب ، هـ . أ . ر : صلاح الدين دراسات في التاريخ الاسلامي ، ص ١١٨ .
(٣) Stevenson, The Crusaders..., p. 254. .
(٤) Setton, A History of the Crusaders, p. 619
(٥) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج ٢ ص ٢٣٢ .
(٦) د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ص ٥ .
(٧) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ / ١٤٨ .
(٨) قدري قلعجي ، صلاح الدين الايوبي ، قصة الصراع ، ص : ٣٦٨ .
(٩) رنسيمان ، ٢ / ٧٤٩ نقلاً عن (ارنول) .
(١٠) فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ص ٢٣٨ .
(١١) مكسيموس مونروند ، من تاريخ الحروب الصليبية ، طبع القدس ١٨٦٥ .
(١٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢ / ٢١٧ .
(١٣) Champor A., Suladin, Les plus pur Heros de L' Islam, p. 188.
(١٤) د . الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ج ١ ص ١٠٣٠ .
(١٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٣٨ .
(١٦) جب ، صلاح الدين ، ص : ١٩١ .
(١٧) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ٣ /٧٧٣ .
(١٨) نظير حسان سعداوي ، ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية ، ص ١٤ .
(١٩) نقلاً عن : د . الباز العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ط ١٩٦٣ ج ١ ص ٧٥٠ .
(٢٠) د . فيصل السامر : ابن الأثير ، د . محسن محمد حسين : موضوعان في التاريخ الكردي .
(٢١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ١٢ / ٩٦ .
(٢٢) ابن الاثير : ن . ص .
(٢٣) قرآن كريم .
(٢٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، طبعة بيروت ، ٧ / ٢٠٤ – ٢٠٥ .
(٢٥) ابن جبير ، رحلته ، ص ١٣ ، ١٥ –١٧ ، ٢٣ ، ٢٧ ثم ٣٠ – ٣١ .
(٢٦) الرحلة ، ص : ٣٤ – ٣٥ .
(٢٧) كتاب الاعتبار ص ٧٧ . وعن هذا الحادث انظر ايضاً (الكامل : ١٢ / ٧٤) .
(٢٨) الكامل ١٢ / ٧٤ – ٧٥ .
(٢٩) انظر مقالنا (ابن شداد في نوادره ، والايام الاخيرة من حياة صلاح الدين ٢ . مجلة كاروان . العدد (١٤٤) ص ١٣٩ .
(٣٠) كتابه «فضائل الجهاد» المخطوط بمكتبة كوبريللي باستانبول رقم ٧٦٤ .
(٣١) ابن شداد ، النوادر ، ص ٢١ .
(٣٢) قدري قلعجي ، صلاح الدين ، ص : ٤٥٣ .

○